الباب الثاني
المسيح في التاريخ

المسيح

يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص، وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل،وظهر على عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكتين، وليس في هذا عجب، لأن الرجاء في الخير أصل منأصول الديانة، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية يبثها الخالق في ضميرخلقه، ويفتح لهم بها سبيل الاجتهاد في طلب الكمال والخلاص من العيوب.

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون "المخلص" المنقذ بعد زوال الدولة القديمة، وروى برستيد عن الحكيم إيبور Ipuwer أن المُخلص الموعود «يلقي برداً على اللهيب، ويتكفل برعاية جميع الناس، ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه[1]».

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة «مردخ» إلى الأرض فترة بعد فترة، لقمع الفتنة، وتطهيرها من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد إنسان، وقيل إنه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون إليه بتفصيل الاعتقاد في إله النور وإله الظلام، وقد تخلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والإسلام، وأشار إليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه إبراهيم بنسيار النظام حيث قال:"إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له، فإذا صدق هذا الزعم كان النظام للألف عام هذه".

أما الإيمان بظهور رسول إلهي يسُمى «المسيح» خاصة، فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها، في التلمود والهجادا وما إليها.

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر الخروج،وما يليهما من أسفار الأنبياء، فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، وأول ما ورد ذلك في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، حيث رُوي عن يعقوب: "أنَّه بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه، وأقامه عموداً،وصب زيتاً على رأسه،

---

1 صفحة ٧٩ من كتاب "نور الشرق القديم" لمؤلفه جاك فنيجان.

ودعا ذلك المكان بيت إيل – أي بيت الله "وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج" أن الرب كلم موسى قائلاً:... وأن تتأخذ أفخر الأطياب ... دهناً مقدساً للمسحة ... وتمسح به خيمة الاجتماع، وتابوت الشهادة والمائدة وتقدسها، فتكون قدس أقداس، وكل ما مسها يكون مقدساً، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم ...

وكان الأحبار والأنبياء يسُمون من أجل هذا مسحاء الله، وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر الأيام: "لا تمسوا مسحائي، ولا تؤُذوا أنبيائي».

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة، فكان شاءول وداود من هؤلاءالمسحاء.

ثمُ أطلقت كلمة «المسيح» مجازاً على كل مختار منذور، فسمي كورش الفارسي "مسيحاً" كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا؛ لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرائيليين، وإقامة بناء الهيكل من جديد، وسُمي الشعب كله مسيحاً كماجاء في المزامير، وكتاب النبي حبقوق، ومنه: "خرجت لخلاص شعبك: خلاص مسيحك" بمعنى الشعب المختار.

وتكررت في كتب «الهجادا» أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر باسم المسيح، فتارة يطُلق هذا الاسم على يوسف، وتارة على موسى عليهما السلام ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا في صورة رسول هادٍ أو صورة شعب مبرور، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول، فردد الشعب الإسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود نفسه، تخضع له الملوك، وتدين الأمم لسلطانه، ثم ترقى الإيمان «بالمسيح» بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار، أو المنذور للهداية والصلاح، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات، ومنها نبوءة أشعيا التي امتازت بتكرار هذه الوعود، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان، إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير، وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظرأنه «محتقر ومخذول من الناس، ورجل أوجاع وأحزان»، وجاء في الإصحاح التاسع من سفر زكريا: أنه «عادل، ومنصور وديع، يركب على حمار ابن أتان»، واتفقت أقوال كثيرةعلى أنَّه يأتي مسبوقًا برائد يعُلن مجيئه، وهو النبي إيليا (إلياس) منبعثاً من الأموات.

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصُاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب، في قوى الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين، وهان خطب الثورة عليها، وتعاظم الأمل في استقلال رعاياها، ويعود الرجاء إلى «المسيح الهادي» كلما استحكم سلطان الغالبين، وبدا أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد، وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل، ويخلفه الأمل المتتابع في انتظار الرسول المخلص، والبعثة الروحانية، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حيناً وتفترقان، بل تتناقضان جملة أحيان، فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحولالسلطان القومي كله إليهم، وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين إلى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية، ومن النَّاحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة إلى اليقظة الروحية جنوحًا متمردًا على القديم، مؤمناً بانتظار البعث من غير جانب "الهيكل" وبقاياه، وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات، فلما بلغ الكتاب أجله، وحانت البعثة المرقوبة، كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد.

النبوة بين بني إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أنْ نلم بأحوال النبوءة في الشعب الإسرائيلي منذ تكاثر عدده، وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله وأسباطه، فإن أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق إلى خواطرنا من النظر في تواريخ كبار الأنبياء، وتواريخ الفترات التي مضت بين عهودهم في الأمم المتعددة.

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة، ونعلم عن يقين أن الذي يقدم على ادعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة، ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرينَّ والملحدين، لأن أتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات، أو يؤمنون بأن النبي الجديدين تقص عقائدهم، ويزعم لنفسه أنْ يعُلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم، أما المنكرون والملحدون، فهم لا يقبلون دعوى النبوءة في هذا العصر، ولا في غيره من العصور.

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين إبراهيم وموسى، وبين موسى وعيسى، وبين عيسى ومحمد -صلوات الله عليهم- قد طالت حتى حسبت بمئات السنين، ففي اعتقاداً على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل، ولا يراه الإنسان في عمرهمرتين.

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم أقدموا على مصاعب تخفيف المقدمين عليها، وشقوا بدعوتهم طرقًا لا يسهل تذليلها، لأنهم حطموا آلهة، وسفهوا أحلامًا، وغيرواالعقائد التي درجت عليها الأمم عصورًا بعد عصور، وأقاموا عليها سلطان ذوي السلطان، كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين، كذلك صنع محمد، وكذلك صنع موسى عليهما السلام فمن تولى الهداية إلى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء، مقتحم على الناس طريقًا لا يقبلون اقتحامه من أحد، ولا يرون أحدًا يقتحمه عليهم إلا أعنتوه، وأقاموا له العراقيل.

أما أحوال النبوءة في بني إسرائيل فينبغي أن نتصورها على غير هذا النحو، لأنَّها تخُالفه من جملة وجوه.

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندُرة، ولم يكن بينهم فترة، أو لم يكن حتمًا لزامًا أنْ تكون بينهم فترة، فقد يوجد منهم في العصرالواحد أربعمائة نبي، كما جاء في سفر الملوك الأول، حيث جمع ملك إسرائيل "الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم: أأذهب إلى رامة جلعاد للقتال"؟

وخير ما ورد في وصف مكان الأنبياء بين بني إسرائيل قول النبي « محمد» ﷺ: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" .

فقد كان عمل النبي في شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة في وقت من الأوقات، ولم يكن قيامهم إنكارًا لقيام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير للكتب والنذر، وحض على اتباع السنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد إسرائيل «أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم «١٨ تثنية»، وأن بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى النَّاس بكلام غيركلام الوحي فعليهم أن ينبذوه»،»وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم بهَّ الرب فاعلم أن ما تكلم به النبي باسم الرب، ولم يحدث ولم يصر، فهذا كلام لم يتكلمبه الرب ... فلا تخف منه».

بل يجوز أحياناً أنْ تصدق الأقوال والعلامات، ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله إسرائيل، فإذا قام في وسطك نبي أوصاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا إنْ دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الأعجوبة أو الآية "١٣..تثنية".

ولم تكن النبوءة بإذن من ذوي السلطان، أمراء كانوا أو كهاناً أو شيوخًا مُطاعين في القبيلة، بل يمتلئ يقين الإنسان بالإيحاء إليه فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوى أحياناًعلى كف لسانه كما قال أرميا: «قد أقنعتني يا رب فاقتنعت، وألححت علي فغلبت، صرت أضحوكة وهزءاً.. وكلمة الرب جللتني بالعار والسخرية.. فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد، فكان في قلبي كأنه نار محرقة محصورة في عظامي ... فلم تكن لي طاقة بالسكوت «20 أرميا».

وكثيراً ما كان النبي ينحى على زملائه في عصره ويخالفهم في تفسير النذر من ربه،كما قال أرميا:"من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها ... فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبَّئُون لكم، فإنهم يبُطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم".

أو كما قال ميخا لملك إسرائيل: "هو ذا الرب قد جعل الروح كذلك في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء".

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة «وضرب ميخا على الفك وقال له: من أين عبر روح الرب مني ليكلمك»؟

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أنْ يطلب أنبياء إسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش، ويلتمس المنازه والأنهار، كما قال دنيال: "لم آكل طعاماً شهيًّا، ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر، ولم أ دَهِن حتى تمت ثلاثة أسابيع، وفيَّ اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول، إذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلة، رفعت عيني ونظرت».

بل منهم من كان يستعين بالسماع، ليشعر بصفاء الروح، ويستلهم الغيب، كما جاء في سفر صمويل الأول: "إنَّك تصُادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة، أمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبئون فيحل عليك روح الرب"(٩ صمويل أول).

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني: "فقال اليشع حي رب الجنود ... الآن فأتوني بعواد ... فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب".

ولكن الأغلب مع هذا أنَّ هم كانوا يرتادون الخلوات، وينقطعون في جوانب الأنهار «عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله» (حزقيال).

ولا يمتنع عندهم أن يلهم لله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين إنساناً من غيرالأنبياء، ومن غير شعب إسرائيل، كما ألهم أبي مالك وبلعام، ولكنَّ هم يلهمون ليعرفوابأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين.

وكان الغالب على سامعي النبوءات أنْ يطلبوا آية يعلمون بها أن المُتكلم ينطق بوحي من لله، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلًا على اليقين والإيمان، وربما أذن للنبي أنْ يطلب الآية، ويمُعن في طلبها، فنرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ أشعيا).

على أنَّ هم كانوا يلجَئون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب، أو الرحلة، أو الإقامة، لعلمهم أنَّ هم أقرب إلى الله، وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحي صوتاً عالياً، ومنكان يحسه إلهامًا، أو هدية، أو رؤيا صالحة، وغالباً ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج الشعب على الأقدمين وانحرف عن سواء العبادة كما تلقاها آباؤهم من الأنبياء السابقين، فلم تكن النبوءة اقتحامًا ولا بدعة مستغربة، ولم يكن فيها خطر على النبي إلا حين يتصدى للملوك والأمراء، فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة، أومخالفة المأثور عن السلف، ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبي في هذه الحالة، ليثبت للناس كذبه وأنَّه لم يأت من عند لله، إذ كان موت النبي الكاذب إحدى العلامات على بطلان دعواه.

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول: إن القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء، ويترقبونهم، ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها، أو يستغربون تكرارها، وأن الإنسان المتهيئ للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها، وألحت عليه أيامًا بعد أيام، حتى يصبح السكوت في حكم سريرته عصياناً لأمر الله ونكولاًعن إرادته، ومتى استقر في سريرته أن طلب الآية تجربة الله، وضعف في الإيمان، فأسلم الأمور عنده حيث تجيش نفسه بروح الله أن ينذر ويبشر، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته، وأن يهديه ويهدي الناس إليه كما يشاء.

وفي عصر الميلاد، ذلك العصر الذي ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب، كما يترقب الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه، لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود، ولا جرم كذلك أنْ يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء في الخيرالمنتظر، وأن يمتحنه الناس، فيعسروا غاية العسر في امتحانه، خوفًا من سهولة الدعوى على الأدعياء، وخوفًا من بطلان الرجاء في إبان اللهفة على الرجاء، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم.

******

الطوائف اليهودية في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي وُلِد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة،لكل منها مذهبه في انتظار المسيح المخلص الموعود.

والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التيسبقتها في بيئات بني إسرائيل.

وضروري من جهة أخرى؛ لأنَّه – فيما نرى – أقوى دليل يرَ د به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر، وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك، حتىَّ جازوا الشك في النصوص والروايات، إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه، كأنَّه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير، وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الإحاطةً بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه، وكانت هذه التعديلات في جملته اتثوب إلى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا، لا بد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذاهب جميعًا، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكروالإيمان.

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها، وهي طوائف **الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين**، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية.

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين تواترت الروايات بأنَّهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان.

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها، لأنَّهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار، وأصحاب الوجاهة والثراء.

وقد كانوا متشددين في إنكار البدع والتفسيرات، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان، ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة، وهي كتب موسى – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – ويرفضون ما عداها، ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع.

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهرمن لوازمها، فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فيالبيئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية؛ كمذهب أبيقور، كما كان مفهوماً

في ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه يومئذ أنَّه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم، ولكنهم في الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن، فإنهم يحُافظون على نظام المجتمع، لأنَّ هم أصحاب اليد الطولى عليه، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه، ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي، وقد كانوا يومئذٍ من اليونان والرومان، ويملي لهم في هذه النزعة أنَّ هم يؤُمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكرالبعث ولا اليوم الآخر، ولا تعِدُ الصالحين حياة بعد هذه الحياة، خلافًا للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب.

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين، وهما «حنانيا» و«قيافا»، ولم يكن في ذلك عجب، لأن الصدوقيين جميعاً يحُافظون على سلطان الهيكل، ويحُافظون على النظام القائم، أو لا يستريحون إلى الثورة والانقلاب.

وخلاصة الآداب الصدوقية أنَّ هم حرفيون في مسائل الدين، متوسعون في مسائل المعيشة، وأنَّ هم يعُاشرون الأجانب، ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان.

وتقابل الصدوقيين طائفةٌ أخرى هي طائفة الفريسيين، وهي أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادئ والآراء، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعِلْيَةَ القوم الذين لا يخُالطون الأجانب، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون في مرتبة الرؤساء والوجهاء.

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية في لفظها ومعناها، فهم المفروزون أو المتميزون، وخصومهم يطُلقون عليهم هذا الاسم تهكمًا وتحقيراً، لاعتقادهم أنَّ هم فرزوا أنفسهم عن السلف، واعتزلوا طريق الجماعة الأولى، أما هم فقد كانوا يطُلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه إلى خطاب الله لبني إسرائيل جميعاً، كما يرونه في الإصحاح العشرين من سفر اللاويين، فهناك يخُاطب الله الشعبَ قائلاً: "وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي"، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون.

لهذا كانت تلازمهم في بعض الأحيان صفات الادعاء والتعالي التي تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزيد بين الطوائف الأخرى، وكان بعضهم هدفاً لحملات السيد المسيح تنديدًا بما يظُهرونه من الثقة والكبرياء.

على أنَّ هم كانوا يقُابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التي كانوا يستنكرونهاعلى خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثورون على السلطان «الرسمي»، حيث كان في الهيكل أو في

المراجع الأجنبية، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم، وينكرون في الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين.

وقد كانت ثورتهم الأولى على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل الرفض، ولا يسُامحون من يقبلها، فلما أمر الملك «نطيوخس» كاهن الهيكل أن يضُحي في مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد، وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة، وحدث في عهد الرومان أن الوالي»بترونيوس» عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها، فسأل زعماءهم: كيف يخطر لكم أن تحُاربوا قيصر ولستم أكفاء لقوته؟! فقالوا: نحن لانحُارب قيصر، ولا نزعم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على بكرة أبينا، ولا نخُالف الشريعة، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون.

ومن نقائضهم أن ثورتهم على استبداد الهيكل، ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورة في المحاريب هي التي دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر في البيوت بغيرحاجة إلى الكهان المرسومين، ولكنَّ هم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلًا مقدسا لمراسم، فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الاستبداد «الرسمي» أشد من المتشددين.

إلا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض أنَّ هم أقرب إلى التصرف والقياس، أو أقرب إلى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد، فكان الصدوقيون مثلًا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلونِّ الدية، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية، وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية، أو آداب التأمل والتفكير، وقد كان إنكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انتظار الخلاص، أو انتظارالمسيح المخلص في عالم الروح، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان.

وإذا وصف الصدوقيون على الإجمال بأنَّ هم طبقة «الأرستقراطيين»، فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر، هم الفريسيون.

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون إلى **فريقين**: **فريق منهما يتبع الحكيم «هلل»** الذي قدم إلى فلسطين من بابل، وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب، **والفريق الآخر يتبع الحكيم «شماي»**، وهو أقرب إلى التحرج والتضييق، ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاعة، وكلمته المأثورة» إن الزيادة في اللحم

زيادة في الدود»، وشريعته في المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة، وهي ألا تصُيب أحدًا بما تكره أن تصُاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهوتفسير وتفصيل، وأما الحكيم شماي فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق، وروي أنّه كان يحترف التجارة ليعيش من كسب عمله، وأن غيرته على القديم كانت أقوى من إقباله على التجديد والتصرف في تأويل النصوص.

والقول الراجح بين المؤرخين أن مُعلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين.

***

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين الطائفتين في العدد كثيراً، وتساويهما أو تزيد عليهما في القوة والأثر هي **طائفة الآسين أو الآسينيين** كما يكتبها رواة الأخبار عنها في عصرا لميلاد.

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف، يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين.

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم، لأنَّهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها، وعباداتها، وآرائها، وأسرارها، وأوشكت أن تستقل عن «الهيكل» كله في علاقتها بالدين والقومية،ولولا أنَّها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود، ولكنّها مع هذا تنكر ذبح الحيوان، ولا تقرب القرابين من غير النبات.

واسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة «آسي»بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التي تعُد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسم يأصحاب هذا المذهب بالآسين، لأنَّهم كانوا يتعاطون طب الروح، ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير.

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالإسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد، واقتبست من المدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية، وبعض المذاهب الفلسفية كمذهب فيثاغوراس الذي يحُرم ذبح الحيوان، ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل.

وكان حرامًا عند أبناء هذه النِّحلة أن يملك أحدهم ثوبين، أو زوجين من النعال، أويدخر الأمتعة والأقوات، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج، ويعُفَى من قيود النسك والبتولة.

وكانوا ينتظمون في النِّحلة على ثلاث درجات: درجة التلمذة، ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم، ثم درجة المقسمين، وهم الذين يُقسمون اليمين، ويقضون سنة في الرياضة والتدرب على العبادة والاطلاع على الأسرار، ثم ينقل المريد إلى درجة الواصلين ويقضي فيها سنتين، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار، ويحمل الفأس في يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة، منها الاغتسال، وتلاوة بعض العهود، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة، ويجوز فصل العضو بعد رسمه إذا حنث في يمينه، واتفق مائة من الإخوان على إدانته، بل يجوز الحكم عليه بالموت، إذ بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الإيمان.

وهم يتطهرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحصلون على الراحة في يوم السبت، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم إزالة الضرورات.

وليس بينها رئاسة ولا سيادة، والرق عندهم حرام، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية، أما التجارة، فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق، وأخبث منها حمل السلاح للقتال.

والمادة عندهم مصدر الشر كله، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم، وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح، وهو عالم سماوي في أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت.

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم، وقلما كانوا يشُاهدون في المدن الآهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وإزجاء الفراغ.

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب حياة الاستقامة والصلاح، ورائدهم في طلب الرضا من الله هوالنبي عاموس، الذي كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا.

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين، لأنَّ هم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة، ويزيدون عليهم بالحض على العمل، لتحقيق النبوءات، وتقريب يوم الخلاص، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات في السنة

السادسة أو السابعة قبل الميلاد، وتمردوا على أمر الإحصاء الذي صدر من»كرينياس» حاكم سورية، وأصبح اليهود بموجبه معدودين في رعايا قيصر، أو عبيده الذيم يدينون له بالسيادة، وحجتهم أن طاعة القيصر من عبادة الأوثان، وأن إحصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة، ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة إليه، وانتزعاه عنوة، وأنذر إخوانهما من يعيده إلى مكانه بالموت، وقد ثار هؤلاء في سنة الإحصاء بقيادة يهودا الجليلي، ومات هو وأبناؤه وذووه في إبان الثورة، وكانت الدولة الرومانية تحُذِّر الفتنة في هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث، فكانت تؤثر التقية والمداراة في معاملة الثائرين، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والأناة.

***

والطائفة السامرية خليط من اليهود والآشوريين، كانوا يقُيمون في مملكة إسرائيل القديمة، يقُال إنَّ هم قبائل آشورية أرسلها ملوك بابل إلى فلسطين، ليسكنوها في أماكن القبائل اليهودية التي نفيت إلى ما بين النهرين، وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل، ويقُال إنَّ هم اختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم، ولم تحملهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسبية، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات،وعاد اليهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد، فعمد السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم، وجعلوا يتعمدون أنْ يدُنسوا هيكل بيت المقدس، ويحصروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم، وقد بقي منافسًا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة، حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهيركانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة، ولكنهم أعادوا بناءه، وظل قائمًا حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد، وقد هدم فسباسيان مدينتهم،وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة «نيوبوليس» أو نابلس المعروفة اليوم،ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها، وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الأمان في السفر بين

السامرة والبلاد الأخرى، وتعرض للإهانة والنكال كل من خاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال.

***

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية، أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا إلى النزاع القديم بين مملكة يهوذا في الجنوب ومملكة إسرائيل التي ورثها السامريون، وهم ينتسبون إلى يعقوب، ويدعون أنَّهم - دون غيرهم - الجديرون باسم «الإسرائيليين».

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب أن عاصمتهم - بيت المقدس - هي مقر الملك المنتظر، وأن هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود، فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى دولتهم، ويجعل الخلاص على أيديهم، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته، ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة الملك في يهودا، ويفتحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية، ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي، وفيمن عسى أن يبُايعوه بالملك، إذا حان الموعد المقدور.

ولم تخل البلاد جميعاً - مع هذا - من ناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنِّحل، واعتزلوا الدنيا، وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران، وارتفع شأنهم في أعين الشعب، لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان، ومن هؤلاء «بانوس» الذي تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات، وكان هذا الناسك الثائر يعيش في عزلة، ويأكل مما يتفق له بغير سعي ولا مسألة، ويكثر من التطهر بالماء، والتزكي بالرياضة والتلاوة، وكان على مثال بانوس نساكٌ متعددون يشُبهونه في شعائر الاعتزال والاغتسال، وأشهرهم يحيى المغتسل المعروف في الأناجيل باسم: يوحنا المعمدان!

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف «الرسمي» المعهود، أوموقف المسئولين الذين يحُاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو لذاك، ويجتهدون غاية اجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب، ولا يغضبوا سلطان الدولة، وقلما يتيسر النجاح فيهذه المهمة، ولا سيما في أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود.

كان الهيكل خيمة في عهد البداوة، وكان الشعب يعتقد قديمً ا أن لله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل في أيام التيه، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلًا من الخيمة والمعبد الخشبي، وقيل إنَّه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب، وألف ألف وزنة من الفضة، غير ما جمعه أسلافه وأعقابه،وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات، وضعف ذلك في حساب الآخرين، حسب تقدير المثقال في المعاملات الرسمية وغير الرسمية، وعظمت هيبة الهيكل، وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحًا من الزمن، ثم هدمه البابليون بعد أنْ قام في مجده أكثر من أربعة قرون، ثم أمر كورش الفارسي بإعادة بنائه في سنة ٦٣٥قبل الميلاد، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف إليه، وتم ذلك أوكاد في عصر الميلاد.

لكن الهيكل بعد تقلب العصور، وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة، خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى في الحقيقة الواقعة، ويتمكن في الصورة الظاهرة، يتداعى لأنَّه يقوم على غير ثقة، ويتمكن لأنَّه كان الموئل الوحيد الذي بقي لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من إعادة ذلك الملك،مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب في عصر الميلاد.

***

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته، يتولاها غيرهم من أسباط اليهود، ومن أعمالهم في الهيكل إمامة الصلاة، والإفتاء في مسائل الفقه، وتقديم الذبائح، والخدمة الدينية في الأعراس والمآتم، والعناية بالآنية المقدسة، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل: إن القائد رزبابل (أي المولود في بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلاثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق، تقوم كل فرقة منها بالخدمة أيامًا من الشهر، ويقتسمون جميعًا في النذور والمرتبات.

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون، وُجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل، يتعاطون صناعة الكهانة، ويقتسمون النذور، ولا يشتركون في تعليم الشعب، ولا في إقامة الصلوات، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة، ويسجلون الأسفار الدينية، ولانصيب لهم من وظائف الهيكل ولا نذوره وأوقافه، وهؤلاء هم جماعة «الكتبة» أو فقهاء الدين، وكانوا جميعًا من الفريسيين، لأنَّهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة، ويعتمدون عليها في

العبادات والمعاملات، خلافًا للصدوقيين الذين كانوا - كما تقدم – يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة، ويرفضون كتب الأديان من بعدها، ولا يعتمدون من ثمَ على جماعة الكتبة والفقهاء.

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعة الكهانة، ولكنهم لايعملون في الهيكل، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية، ولكنهم لايحسبون من رؤسائه الوراثيين، وشاع بين الشعب إهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والإفتاء على الخصوص، وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء»غير الوراثيين أو غير الرسميين» لسؤالهم في المعضلات، والاقتداء بهم في مسالك الحياة، فأصيبت المكانة «التقليدية» بضربة قوية، وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم «الكهنوتية»، والشعائر «الهيكلية» على الخصوص.

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه اسم «السنهدرين»، وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوًا، منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص، وتغلب عليهم الصبغة الرسمية التقليدية،ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشئون العامة، وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام،والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية.

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب في «السنهدرين» أنْ يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود، وكانوا يزعمون أنَّه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد إذ يقول:

«فقال الرب لموسى: اجمع إليَّ سبعين رجلًا من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنَّهم شيوخ الشعب وعرفاؤه، وأقْبِل بهم إلى خيمة الاجتماع، فيقفوا هناك معك، فأنزل أنا وأتكلم معك، وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم، فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك«.

غير أن المراجع التاريخية، ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين،إلا إشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده، ولا تفصيل حقوقه ووظائفه،ً ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو أربعين سنة، وكانت أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الروماني يبرمها أو ينقضها حين يشاء.

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتظر» لم نكد نرى فيها باعثاً إلى الترحيب بتلك البشرى، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله، واليأس من صلاحه، واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله، ولكنَّ ها مع هذا لا تستطيع أن تتنكرلهذه الدعوة؛ لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها، ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها، وهي إذا انتشرت لم يكن انتشارها في مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان، ولا يأتي أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون، لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير، وينصب لهم ميزان الحساب.

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح، فقبل ميلاده – عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ– بغير الإشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة لله والتبشير باليوم الموعود، يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا آحادًا متفرقين ينذر كل منهم نفسه، أو ينذره أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها.

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفُيد معنى التجنيد، واستعيرت على ما يظهرللجهاد في سبيل الدين، يقال نذر الجيش الرجل، جعله نذيره، أي طليعه، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو، ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت، ولا شك أن المادة تدورحول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان.

ولا يشُترط في النذري أو المنذور أن يهجر العالم، ويعتزل الناس في الصوامع، ولكنه يراض على حياة التنطس، فلا يجوز له شرب الخمر، ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة، وعليه أن يرسل شعره، ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذورًا لأجل مسمى، وقد ينذر الطفل قبل مولده، ويمتد نذره طول حياته، ويقال عن المنذور إنه بمثابة النبي في سن الفتوة، قال النبي عاموس بلسان يهوا إله بني إسرائيل:وأقمت من بينكم أنبياء، ومن فتيانكم نذيرين، لكنكم سقيتم النذيرين خمرًا، وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة، والنبوءة هنا بمعنى الإنذار بما سيكون.

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري، وهو الموعد الذي كان منتظرًا لبعثة المسيح الموعود، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة، ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهي كألف سنة كما جاء في المزامير، وإن عمر الدنيا أسبوع إلهي، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء، ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة، فيدون ألف سنة كاملة، هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفيةMillennium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام.

فالذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند لله، كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدًا منظورًا أو منذورًا، يكثر فيه النذيرون، لعلهم يحسبون من جند الخلاص، أو لعل واحدًا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه.

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه، أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين، ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري، وهما في اللفظ العبري متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة، بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود، لأنها لم تذكرقط في كتب العهد القديم، ولكن الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة: بمعنى الطليعة، عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديمًا،وأنها كانت مرقباً صالحا للاستطلاع، لأن التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص، ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية، لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذورين، والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين.

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا جعلهم قوات ذات بال في عصر الميلاد خاصة، لأنهم جميعًا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل، معقودة نياتهم على الإصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود، ويترقبون ظهوره للترحيب به، والإصغاء إليه، ولا تحيط بهم طائفة أومذهب محدود.

الحالة السياسية والاجتماعية في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير «بومباي» الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة «سبارتاكوس» المشهور.

وقد حسبت هزيمة «سبارتاكوس» من العظائم التي أضافت إلى مجد بومباي، وخلدت ذكره بين أبطال الرومان، ولكن هذه العظائم تضفي على الأبطال والدول مجدًا لا ينطوي على خير كبير، فمن دلائل القوة أنْ تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التي لم يعرف لها مثيل في ثورات العبيد الأقدمين، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر، فلو لم يكن في بنية الدولة صدع مخيف، لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات، ولولا خلل في كيان المجتمع، لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون إلى مجد رومة نظرة الحقد، ويجازفون بالحياة، ليهبطوا بها إلى الحضيض.

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية، ولم يكن أول «عبد» شرقي ثائر على الدولة الرومانية، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى الثورة في صقلية سنة «143 قبل الميلاد»، واستطاع أن يقُيم له عرشًا استقر في الجزيرة عشر سنين، وهذه هي الثورة التي تجلى قائدها «أونس» لأتباعه في صورة النبي المرسل، وفي شارة الملك المتوج بيد لله، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرقيون.

وقد سبقت ثورة أونس السوري، ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف، ولم تخل إحداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها، وكانت واحدة منها في آسيا الصغرى تنشئ لها حكومة تسميها حكومة «الشمس»، رمزًا إلى عبادة النور والحرية، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون في صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان.

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافياً على المصلحين من ساسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح، فأرادوا إصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد المواريث، وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان، وظن كايوس جراشسGracchus أنه يعُالج الآفة بإنشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار، يحدبها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين، واضطر هو وأخوه إلى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها، ولكن عوامل الخراب كانت في تلك الأجيال أعمق وأفعل من

عوامل العمار والصلاح، فلما حاول يوليوس فيلبس في سنة «١٠٤ قبل الميلاد»أن ينُظم الإقطاعات بتشريعاته الزراعية قال في خطابه «التفسيري» كما روى شيشرون:

« إن مُلاك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين». وازدادت هذه الحالة سوءا في عصر أوغسطس المجيد كما يوُصف في التواريخ، فآلت المستعمرة الأفريقية إلى قبضة ستة من المتبطلين، وفيها ألوف من الأرقاء المسخرين.

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري مَتَّى: «إن للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكارًا، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه».

والواقع أنه كان عصراً مجيدًا بقوة السيف، دون كل قوة أخرى من القوى الإنسانية،وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه: فتوح واسعة، وسطوة تصد الأعداء، وتقمع الثائرين، وألقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة، فأصبحت لها سندًا لاغنى عنه، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها ألقت بنفسها على مذبحها، فباعتها حريتها وكرامتها، وضيعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة، بل رفعت القيصرإلى مقام الربوبية المعبودة، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إله، وقررت عبادته مع الآلهة، ورصدت له شهرًا في السنة لا يزال معروفًا باسمه إلى اليوم، وتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم، حتى عزعليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين.

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول، فضاع القانون مع السلطان المطلق، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين: ثروة وترف وطغيان من ناحية، وفقر وضنك وهوان من ناحية، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع، بل لانظام للحياة نفسها، ولا قيمة لها مع إفراط النعيم حتى السأم من الحياة، وإفراط الشقاء حتى النقمة على الحياة، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذي كسب العالم وضيع نفسه، فضاع وأضاع.

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة، وانقسم الرأي في فلسطين بين الدولتين: منهم من يشايع الفرس، ومنهم من يشايع الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادًا خرج بهم إلى ضراوة الوحشة في مناصب الدين فضلًا عن مناصب الدنيا، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان في بيت المقدس، وكان أنصار الفرس يرشحون

لرئاسة الكهنة أنتيجونس بن أورسطبولس، فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس، وقضم أذنه بأسنانه، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوي العاهات.

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل أدوميين، عرف بفراسته وبعُد نظره أن الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان، فانضوى إليها، واستبسل في معونتها، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل، حيث ولد السيد المسيح، وكافأهم هو بالتمادي في محاكاة المدنية الرومانية، وأوحت إليه حصافته أن يدُاهن السلطة الدينية ويدُاهن السلطة الدنيوية في وقت واحد، فتغالى في الغيرة اليهودية التي كانت قبيلته تدين بها علي يسبيل المداراة والمجاراة، وتغالى في محاكاة الرومان والإغريق بالأزياء والمساكن والشارات والأسماء، وتكفل بإتمام بناء الهيكل على نفقته، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل منبين أعوانه «المترومنين»، إن صح هذا التعبير، لعلهم يدارون شططه في محاكاة الرومان، ومجافاة التقاليد العبرانية، كلما احتاج إلى التوفيق بين النقيضين.

ومع هذا الجهد المضني في التقريب بين الطرفين، مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية، فعقد لهم محكمة علنية، وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء! وقبض على الزعماء المحبوبين، فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات قبل إعلان وفاته، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه، فلا يمُتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه.

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة، فوقعت الجليل - حيث ولدالسيد المسيح - في حصة هيرود الثاني ائتيباس، ووقعت اليهودية في حصة أرخلاوس، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب، وكان من مراسم الولاية أنْ يذهب الملك إلى رومة ليتلقى عهد الإمارة من يدي القيصر، فهذا الذي يشُير إليه السيد المسيح في مثله المشهوركما رواه الحواري لوقا حيث يقول ما فحواه:"كان إنسان شريف النسب ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع ... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه، فأرسلوا وراءه سفارة يقولون: لا نريده ملكًا علينا "...

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود، وحكومات النبطيين، والمدن العشر، وقصدت رومة بهذا التمزيق أنْ تخيف ولاية بولاية، وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاتهم، وتتخذهم جميعا درعًا تدفع به غارات الصحراءوهياج المتعصبين.

ومن المتواتر – مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتي بعد – أن السيد المسيح وُلِد في أعقاب ثورة جائحة اشتعلت في أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم، لأنَّهم هبوا في وجه الدولة الرومانية محتجين على صدورالأمر بالإحصاء العام، وليس الإحصاء بطبيعة الحال سبباً من الأسباب لإشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة، ولكنه أشعل نار الثورة فعلًا؛ لأنه أثار بين الإسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين: إحداهما مشكلة الاعتراف بملك غير «يهوا» الذي يؤمن الشعب اليهودي أن هو الإله وهو الملك، وأن مُبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعُاقبه عليهما بالضربات والمحن، ولا يغفرهما له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال، فإذا دان اليهودي لملك غير «يهوا» أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة لله، مستحق للعذاب والحرمان، وقد حسب الشعب الإسرائيلي أن الإحصاء مُقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردًا فردًا وتقييدهم عبيدًا للقيصر مطالبينبعبادته وافتتاح الصلوات باسمه، وكان فقهاء اليهود يذُعنون للجزية، وهي تؤخذ منهمعنوة عن طريق الالتزام الذي لا يخص الأفراد بالأسماء، بل يؤُخذ جملة على الأكواروالأقاليم، ولكنَّ هم كانوا ينُكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الإنكار، ويحكمون بكفرمن يجيزها، ويشترك في تحصيلها، وينبذونه من الجماعة، وينبذون معه من يعاشرهويتحدث إليه؛ ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح؛ ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداءالجزية هل يجوز أو لا يجوز، فأرسلوا إليه تلاميذهم من الهروديين قائلين:»يا معلم، إنَك صادق تعلم بالحق ولا تبالي أحدًا؛ لأَّ نك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن نعُطي جزية لقيصر أم لا يجوز؟» فكان جوابه المشهور: أروني معاملة الجزية! ونظر إلى الدينار الروماني! فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فلما أجابوه أنها لقيصر، قال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وأسكتهم جوابه، لأنهم لايرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو كانوا يستنكرون أداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم،وهي التي ثارت عند تقرير الإحصاء العام.

أما المُشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الإحصاء، فهي مشكلة الضريبة، وعسف الجُباة في تحصيلها، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين، إحداهما للهيكل، والأخرى للدولة، وقد جاء في الأناجيل أن رُسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه، وأنه – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – سُئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان: ما تظن ياسمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية؟ أمن بنيهم أم من الأجانب؟ فالله التلميذ: بل من الأجانب. فقال السيد المسيح: إذن إن البنين أحرار. ولكنه عاد فأمرتلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ.

وقد كان أداء ضريبتين عبئاً فوق طاقة الفقراء، ولكنه – مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة – كان عبئاً لا يطيقه الموسرون فضلًا عن الفقراء، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة، فإذا حان الموعد السنوي فتح باب المزايدة، ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي يسلمونه للملتزم، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزانة الدولة، فكان المال المحصل يربي على ضعفي المال المطلوب.

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب، وكان الشعب الإسرائيلي لا يغتفرلأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب، ويبتزوا المال حراماً من أرزاق المعوزين، ومن ثم كان إنكارهم على السيد المسيح أنه كان يُخاطب العشارين، ويدخل بيوتهم، ويستمع إلى مناجاتهم، ولكنه كان يستمع لهم، ويوصيهم بالأمانة في الجباية، يسألونه:يا معلم! ماذا نفعل؟ فيقول لهم: لا تستوفوا أكثر مما فُرض لهم، ويقول للجند الذين يصاحبونهم: لا تظلموا أحدًا، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم، لأن الدولة كانت ترُسل الجنود يجمعون طعامهم، وعلائف مطاياهم من الناس!

فلما صدر الأمر بالإحصاء العام، توهم الدهماء أن الدولة لا تكتفي بما تحصله جملة، وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردًا فردًا، مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام، فاستجابوا داعي الثورة من الغلاة، وغضبوا لعقائدهم كماغضبوا لأرزاقهم، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون.

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوربيين أن الحالة السياسية في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون، ولكنها على إفراطها في السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية في الدلالة على القنوط وعموم البلاء، وَحَسْب القارئ أنْ يتصفحا لأناجيل كائناً ما كان

اعتقاده فيها من الوجهة الدينية؛ لكي تتمثل له حالة البؤس واليأس التي كانت ترِين على القرى والمدن في أقاليم فلسطين، ولا سيما إقليم الجليل الذي تواترت الروايات عنه، فحيثما سجل الإنجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى، فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف، بينهم من يقُال عنه إنه جسده تسكنه الشياطين، أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالاً،وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار، وهذا إلى أمراض البرص والنزيف والصرع الذي لا يقترن بالجنون.

وإذا كانت هذه الحالات البارزة، فإلى جانبها – ولا شك – حالات أخرى دونها في الشدة والبروز، تنم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع، وتركته مهيض الأعصاب، عرضة للسخط والهياج، ويضاف إلى هذا أن عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأساة الذين يطُببون المرضى بالعلاج الروحاني، ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج، وإذا قلنا إن عصر الميلاد قد شهدعصرًا مهيض الأعصاب، فنحن نلتفت التفاتاً خاصا إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في جملتها، فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الإيمان،وليس أشد منه تعطشًا إلى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه إلى الهادي الذي يرُجى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأتِ أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها، وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين، وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان، وإن لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة، فجعل للتطهير رمزًا من الاغتسال بالماء، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه، وهو بلاط الملك هيرود، فإنها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم، والبناء بهن على غير شريعة، وقتل الإخوة والأبناء، وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات، فكانت جسارة النبي على التطهير كفئاً لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة، وقضي على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح،وخرج من الميدان شهيدًا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة، فإن جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه، وإن عهده قد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد، ولا جرم يكون عصر «يحيى المغتسل» عصر رسالة عاجلة

أوعصر ارتياد وتمهيد: هجمة من هنا وهجمة من هناك، ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء.

الحياة الدينية في العالم في عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعموركله، ما عدا الشرق الأقصى، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة، فشوهدت في رومة، والإسكندرية، ونابلس، وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطئ الأطلسية، وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الإسكندرية، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدةَ وتعود الناس أنْ ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية، وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية.

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثرًا في موضوعنا – حياة المسيح – أن عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق، وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها، ومنها العاصمة الكبرى، خلافًا لما يسبق إلى الظن من غلبة العقائد تبعًا لغلبة القوة السياسية.

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطوار التاريخ، بل حدث على نقيض ذلك أن عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة وأتباعها، وهي التي انتقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة،وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة، بل كانت تطبيقًا جديدًا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها.

وليس في الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر إلى الذهن لأول وهلة؛ فإن سريان

العقائد من الشرق إلى الغرب في تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب، ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل.

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقًا للقياصرة، وموافقًا للرعايا في وقت واحد، فقد كان القياصرة يطمعون في الربوبية، وكانوا يسمعون أن كهان المعابد في الشرق يعلنون حلول الآلهة في أجسام الملوك، ويرشحونهم للعبادة، ولم تزل المناداة بالإسكندر ابناً للإله «آمون» خبراً يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح، ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه، ويفتح مثل فتوحه، وجر هذا المطمع الغريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح، حين تصدى الملك أنطيوخس – خليفة الإسكندر – بطلب الربوبية، وسمى نفسه بالإلهي أو صاحب الشارة الإلهية.

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطًا من الشعوب المختلفة، وسرى هذا الاختلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق، ويتركونها فيه زمناً، ثم يتعمدون إبقاءها ثمة بعض الأحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء في العاصمة، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها، فوافقه أن يتشبه بالمشارقة، كما حدث في عهد الإسكندر، وأنْ يطلب الربوبية من القياصرة!.

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم أنه هو مهبط الأسرار العلوية، وأنه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية، وأن كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب، وينفذون إلى بواطن الديانات، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة إلى المجوس،والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسُيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم، لا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء!.

لهذا زحفت على العالم الروماني نحلة «مثرا» ونحلة «إيزيس» ونحلة المتنطسين،كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى، ومرجعها هي أيضًا إلى الشرق القديم.

وقد شُوهدت آثار العبادة المثرية في أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب:شوهدت في آثار السور الروماني للبلاد الإنجليزية، كما شُوهدت في غيرها، وشاعتَّ العبادة بين شبان الجيش، لأن «مثرا» كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين: إحداهما صفة النور الذي يبُدد الظلام، والحق الذي يمحق الباطل، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كتاب المجوس المعروف بكتاب «الأفِستا» إنه يسوق جحافله منتصرًا، لتغليب إله الخير أورمزد على إله الشر أهريمان، وهو كذلك إله محبوب عند غير الجنود؛ كالرعاة، والعاملين بالليل، يعبده الرعاة والملاحون، ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية، ويعتقدون أنه يوُلد في الجسد الآدمي، كما يولد الفقراء في كهف مهجور، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف، وربما حببه إلى العباد ذلك الحنين المعهود في الناس إلى استطلاع الأسرار، والطموح إلى الترقي في درجات العلم بالمجهول، فقد كانت لعباده درجات سبع ينتقلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة المختارين،ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سرا أو جهراً على ملأ

من الصفوة المقربين، ومنها تناول الخبز، واعتبار الشهد المقدس الذي يوضع على اللسان رمزاً إلى حلاوة الإيمان.

واقترنت نحلة «إيزيس» المصرية بنحلة «مثرا» الفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان، فسماها اليونان «ديمتر» ونحلوها صفتها المصرية، وهي صفة الأمومة الكبرى،أو صفة الطبيعة الأم، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر، ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة، ويرسمون لها صورًا جميلة تنم على الطهارة والحنان، وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمز الأمومة والبر والبراءة، وكان كُهانها يحلقون رءوسهم في الغرب محاكاة للكهنة المصريين، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسُمونها حامية البيت والأسرة، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة،وتقديس حقوق الآباء، ولا شك أن المراسم السرية التي تلازم نحلة إيزيس كان لها أثرها في تشويق الناس إلى انتحالها، كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة مثرا وما شابهها من العبادات.

وخرجت من مصر أيضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها، وهي نحلة المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الإسكندري اليهودي فيلون، وقال إن أتباعها كانو ايجتمعون يوم السبت، ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع؛ للتأمل والدراسة الفلسفية،ورياضة الروح والجسد، واسمهم اليوناني معناه الأساة أو المتنطسون، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الإسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة، ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الآسينيين، وأشرنا إليهم في الكلام على فرق اليهود.

ومما يلاحظ أن نحلة «أورفيوس» اليونانية لم يكن لها من الأشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة، ولعلهم كانوا يحسبون «الأسرار» الدينية اختصاصًا للشرق القديم، ويرجعون إلى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة «الأورفية» إلى ديانة شرقية تجري على سنة الشرق في التقشف والأخوة الروحية، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية، وقيل في وصف أورفيوس إنه كان يعزف على أوتاره، فيقبل عليه الوحش والنعم والطير، وتنسى ضراوتها وهي تصغى إليه، ثم أصبح التأليف بين الضواري والنعم رمزاً إلى التأليف بين القلوب وانتزاع الشرمن نفوس الأقوياء، وجاء عصر الميلاد، والأورفيون يدينون بالزهد والتقشف، ويحرمون اللحوم، ويلبسون الثياب البيض، ولا يذوقون الخمر إلا في مراسم القربان، واحتفظوابعقيدة اليونان الأقدمين في أساطيرهم عن

أورفيوس الفنان، فزعموا أنه يزور عالم الموتى ويعود منه، وجعلوا لهم موعدًا يحزنون فيه على موته، وموعدًا يحتفلون فيه ببعثه، وتشابه الاحتفال ببعثه، والاحتفال ببعث أدونيس إله الربيع، وكثيراً ما قيل فيَّ كتب المقابلة بين الأديان إن آتون الإله المصري، وأدونيس الإله اليوناني، وأدوناي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية، أسماء عدة ترجع إلى مصدرها المصري القديم.

***

ومن الواضح أن هذه النحل التي كانت تصطفي الأعضاء والمريدين، وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية، لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها،وإنما كانت في جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي تضم إليها المشتغلين بغرض واحد، أو المتفقين في المزاج والعاطفة، وكانت أقرب إلى الجماعات الفنية الرياضية التي تقوم على تخير الأذواق، وتوحيد العلاقات بين الأشباه والنظراء، فكان طلابها جميعًا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة، ويعتقدون أو يرجحون أن هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم إليه الحكماء المجربون المدربون، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة، فانصرفوا عنها إلى حيث يلتمسون الحقيقة، ويشعرون براحة الضمير، في جو من الألفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية، فهي عنده بمثابة الأندية التي تصون روادها من الأخلاط و«الأغيار»، ولا سيما الأغيار من ذوي الجهالة والإسفاف.

ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد أنها «أولاً»علامة على طلب الاعتقاد، وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الخواء في جو التقاليد والمعتقدات.

الحياة الدينية في العالم في عصر الميلاد وإنها «ثانياً» علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور، وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة، ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها.

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيراً بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها، وكانت على دأبها سادرة في عاداتها ومألوفاتها، ولكنها لم تخلُ في هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة، وتضمهم جميعًا بين حين وآخر إلى محافل الأعياد العامة التي تقام لهذا «الرب» أو لتلك «الربة»، أو تتردد في مواسم الطبيعة بصبغتها التي كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين،وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور، بل تشجعه وتحض عليه، إذ كانتَّ القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز، واللعب بين يديها، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئاً أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق في المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة،فذلك أسلم من التنازع والفتنة والصدام.

وجملة ما يقُال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور أنها كانت حياة تقليد أوحياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة، أنفة من عقائد التقليد، وأنها كانت تجري في مجراها إلى «العالمية» التي تعم الناس، ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها، وأهم من هذه العالمية في النحل والمحافل «عالمية» في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هي لسان «يهوا» الذي يخاطب به الأنبياء، ويناجي به الكهان في المحاريب،فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء، واستمعوا إلى كتب الوحي باللغة الآرامية، وما يشُابهها من اللهجات السريانية، ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد ومابعده، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح والتلاميذ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل، وكانت السريانية لغة التوراة والإنجيل معًا، ولما ينقضِ أكثر من قرن واحدعلى مولد السيد المسيح.

***

وأهم الظواهر التي تسجل في سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قُبيل الميلاد، أن العقائد الوثنية كانت في حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الإفلاس، فقدَّ روى المؤرخ سويتنوس أن القيصر أوغسطس جمع في سنة ١٢(قبل الميلاد) قرابة ألفي قرطاس من

النبوءات، والصلوات المكتوبة باللاتينية والإغريقية، وأمر بها فأحرقت علانية، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة، فوضعها في صندوقين مذهبين، ونقلها إلى معبد الإله أبولون، وفي هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل.

الحياة الفكرية في عصر الميلاد

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل، حيث ولد السيد المسيح، وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد ببضعة قرون،وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية، وهي التي تعنينا فضلًا عن شهرتها؛ لأنها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصريشُبه عندهم العصر الذي وُلد فيه السيد المسيح، وهما الأبيقورية والرواقية، فإن هذين المذهبين – على تناقضهما – رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارهاعلى الدولة الفارسية، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة، وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين.

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة هي طلب السكينة والراحة، إلا أن الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان، كانت أقرب إلى الروحانية والمزجبين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود، وهي جميعًا أقرب إلى النشأة الشرقية، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى.

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في «أخوة» ذات شعائر وصلوات، بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية،وتستوجب عندها عادات مقدسة، أو امتناعًا عن بعض العادات، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس أنه ابن الإله «أبولون»، وأنه لم يمت، وسيبعث بعد حين، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح، وأن الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك، ولافكاك لها بغير صالح الأعمال، وهم يحرمون أكل الحيوان، ويحرمون كذلك أكل الفول، ويستحسنون اجتناب البقول على العموم، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح، وألا يلتقطوا شيئاً وقع على الأرض، ولا يقطعوا الزهر من الشجر، ولا ينظروافي المرآة إلى جانب النور، ومنهم من كان يعظ الحيوانات؛ لأنهم يؤمنون أنهم يخُاطبون أرواحًا تسكنها إلى حين، وعندهم أن الناس درجات؛ بشر وأنصاف من بشر وآلهة، وفيثاغوراس أحد هؤلاء.

وكان فيثاغوراس يقبل الرجل والنساء في أخوته، ويوجب المشاركة في الأقوات والمقتنيات التي تصل إلى أيدي الجماعة، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف

العلمية، ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة، وأن الحياة كانت «فرجة» عنده،وهي كذلك عند من يشبهونه، فالعالم في رأي الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية،يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك،ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعًا، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان.

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من لله، ويردون اشتقاق الكلمة ثيوريtheory إلى اسم الله ثيوس Theos باليونانية، فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة الإلهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة «والانسجام» بينه وبين موسيقى الكون، إذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية، وصورة كماله عدد الأربعة، ولعله كذلك عندهم؛ لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء.

وقيل إن لهم أغراضًا سياسية، وإنهم كانوا يتآمرون على الدولة في اجتماعاتهم السرية، وقد عاش فيثاغوراس في القرن السادس قبل الميلاد، وساح في بقاع العالم المعمور كله، وبقيت نحلته، أو أخوته في جميع الأقطار، ولا سيما الأقطار التي أقام فيه االيونان المستشرقون.

أما الأبيقورية والرواقية فقد ظهرتا في عصر واحد، وانتشرتا بين المثقفين في جميع أنحاء العالم المعمور، ويبدو عليهما أنها متناقضتان، ولكنهما في الواقع متقاربتان أويمكن أن تتقاربا عملًا على حسب التفسير والسلوك في المعيشة.

نشأ أبيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، ووُلِد - على القول الأشهر- في جزيرة ساموس على مقربة من شواطئ آسيا الصغرى، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو في نحو الرابعة عشرة،وافتتح مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد، وهو في نحو الثلاثين.

وإذا قيست فلسفة أبيقور على معيشته الشخصية فهي حياة نساك متقشفين؛ لأنَّ هكان يقضي معظم أيامه على الخبز والماء، أو على الخبز والجبن، لكن اسمه اقترن باللذات والشهوات؛ لأنه كان يعُلم تلاميذه أن السرور هو غاية الحياة، وأفضل السرور ما لم يعقب ألمًا ولا ندمًا، ولهذا كان يجتنب الشهوات البهيمية، ويجعلها من قبيل السرور "المتحرك"، وهو السرور الذي يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء، وقد كان يقسم السرور إلى نوعين: سرور

متحرك، وسرور مستقر أو ساكن، وأفضلهما كما تقدم سرورالسكينة والاستقرار، ويعني به سرور التأمل والراحة والقناعة.

وكان أبيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات، ولا يرى حرجًا فيطلب السرور، حيث يوجد بريئاً من الألم والندم، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم «الخير»إذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم.

وقد أنحى أبيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه أنها محشوة بالخرافات والأكاذيب، وعلم تلاميذه أن الآلهة موجودة، ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا، فلا قدر لها فيها ولا قضاء، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة ونقاوة التركيب، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود.

ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية،ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والغيوب، ويواجه الموت نفسه على مذهبه في السرور والألم، فإن لم يكن في الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة، ولهذا شاع مذهب أبيقور في عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والإيمان بالعناية، وفضله المكذبونَّ بالديانات على مذهب الرواقيين، لأن الأبيقورية – خلافًا للرواقية – لا تعفي أصحابها من التكاليف، ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يثقل على كواهلهم، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية، التي يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الإيمان والعبادة.

***

وإذا أردنا تلخيص المذهب الرواقي في كلمتين اثنتين، فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة.الصبر على الشدائد، والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للإنسان من غير نفسه وضميره، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن، وقمع الشهوة والهوى، فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون أن الكون كله نظام متناسق يجري على حسب المشيئة الإلهية، والوحي والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه، ويلتقي الإنسان بالعقل مع الآلهة، وبالجسد مع الحيوان الأعجم، وفضيلته

الإنسانية هي أنْ يطيع العقل، ويعصي الجسد، وعصيانه الجسد هومقاومة الشهوات، وطاعته العقل هي طلب المعرفة، وسعادة الإنسان كلها هي السعادة التي تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة، وتحصيل العلم، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وَهْمٌ لا يدرك، أو هو فضول لا خير فيه.

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد، ولكنهم تدرجوا في الروحانية، وانتهى خلفاؤهم في عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح في مواجهة المادة، فالإله الأكبر «زيوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حرا من قيود المادة،ولكنه يعُطينا قبسًا من روحه الإلهية نصبح بنعمته إخواناً، لا يفرق بينهم وطن ولاجنس ولا لغة، وأينما يكونوا فهم مع لله، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد، فإنما القداسة في النفس التي تعبد، وليست القداسة في مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد، ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التي أثرت عن زعيمهم كليانتس قبل الميلاد (130-330) حيث يُناجي زيوس قائلًا:"اهدني يا زيوس، أيها القدر، خذ بيدي إلى حيث أردت أن ترسلني، خذ بيدي أتبعك غير ناكص ولا وجل، فإن خامرني للريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لي ولا نجاة".

ويتبع الرواقي طريق القدر، لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى، فإن الإله الأكبر لا يريد شرا ولا يخلقه، وما هذه الشرور التي في الدنيا إلا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير، ولا يعقل الخير بغيرها، فلا محل للراحة بغير التعب، ولا محلل لشبع بغير الجوع، ولا محل للرحمة بغير القسوة، وإذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التي تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الإلهية، وإنما تكون الرحمة فضيلة إذا تبصرت كما يتبصر الإله في قضائه، فتنكر القسوة، ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة، فإن الحكيم يحمل في حكمته ترياق كل سم، ودواء كل بلاء.

وقد أخذ الرواقيون من الهند - بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر - أن العالم ينقضي ويعود في دورات أبدية لا تعرف لها نهاية، واعتقد بعضهم أن أراوح الحكماء تبقى في كل دورة إلى نهايتها، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية، وهي النار التي تطهر جميع الموجودات لتخلص من أوشابها، ثم تعود دواليك في وجود بعد وجود، وعالم بعد عالم، وقيامة بعد قيامة.

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين، ولا سيما القطبين الكبيرين في هذه المدرسة زينون ٢٧٠-٣٤٠(قبل الميلاد) وبوزيدون ٥١-١٣٥(قبل الميلاد)، فهم جميعًا من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية، وخلاصة مذهب الإمام الرواقي الأكبر - زينون - كما لخصناه في كتابنا عن الله « إن الإله جوهر ذو مادة» Soma، وأن الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يتخلل أجزاءالكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا، وأن الناموسNomos - وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحقLogas Orthos أو الكلمة الحقة - هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية، ويعتقد- كما أسلفنا - أن الفلك ينتهي بالحريق، وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره، ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم؛ كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام، ويترادف عنده معنى لله والعقل والقدر وزيوس، فكلها وما شابهها من الأسماء تدل على موجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردًا لا شريك له، فشاء أنْ يخلق الدنيا، فأصبح هواءوأصبح الهواء ماء، وجرت في الماء مادة الخلق Logos Sparmatikos كما تجري مادة التوليد في الأحياء، فبرزت منها مبادئ الأشياء وهي: النار، والماء، والهواء، والتراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التدريج، وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التي تحرك الهيولى، وهي قوة عاقلة، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه، ولاشيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم، ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنَهم بحثوا عن لله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة، فعددوها ونسجواحولها الأساطير من تشبيهات الخيال، ولكن هذه التشبيهات إن هي إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية.

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد - بوزيدون الذي أشرنا إليه - كان يعلم تلاميذه أن الروح لا تفنى بفناء الجسد، وأنها ترتقي صعداً في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة، فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض، ومنهاما يحلق بين الأفلاك العلى، ويسبح معها، وينعم بالنظر إليها، والاستماع إلى ألحانها في مسراها إلى يوم القيامة، وقد كان هذا الحكيم معنيًّا بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية، كما كان معنياً بها في بحوثه الفكرية

الدينية، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «الرواقيون والشكوكيون» and Stoics Scepties أن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً، ويقال: إن هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية.ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور إمامه الأول – زينون – بنحو أربعة قرون، فكان من أئمته العبد الرقيق إبيكتيتس ١٠٠-٦٠ (بعد الميلاد) والإمبراطور الكبير ماركس أورليوس (١٢١-١٨٠ بعد الميلاد)، وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه.

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح، فقد كان هذا المذهب ومذهب الأبيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية، كأنهما زيان من أزياء الثقافة التي يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأبيقورية، وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها تمشياً مع نزعتهم إلى التجديد.

ومن المصادفات التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الإسرائيلي أن عصر الميلاد أنجب أكبر الفلاسفة الإسرائيلية في العصر القديم وهو يهودافيلون، الذيوُلد بالإسكندرية سنة ٣٠(قبل الميلاد) ومات سنة ٥٠(بعد الميلاد)، ومزج في فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت، ولا سيما منبت الإغريقية الإسكندرية،وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها في الزمن القديم، وقال إنها هي واسطة لله في علاقته بهذا العالم، وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة إيزيس وعبادة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالإسكندرية، وتفرعت في أثينا وبومبي وروما وبعض الموانئ الآسيوية، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحًا عقليًّا يخُالف في كثير من المسائل شروحها التقليدية، وقالَّ في كلامه عن خلق العالم إن موسى – عليه السلام – لم يأتِ بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام

قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح، ولابأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التي تحُيط بها الألغاز والزيادات، وأنه روىَّ قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مُطابقة للنظام (أو الشريعة)، وأن النِّظام مُطابق للدنيا، وأن الإنسان الذي يتبع النظام مُواطن صالح للعالم كله، يسير في عمله وفقًا لمشيئة الطبيعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لمشيئتها.

وقد كان فيلون رواقيًّا على حافة الأبيقورية، فقال في كلامه عن إبراهيم مفسرًا اسم إسحاق:»إن معنى إسحاق في لغتنا الضاحك، ولكن الضحك هنا غير الضحك الذي يأتيمن سرور الجسد، فهو سرور المعرفة الصالحة، هذا هو الفرح، هذا الفرح الذي روي لناَّ أن الحكيم إبراهام قدمه قُربانا إلى الله، مُبينا ذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده، إذ الإنسان عُرضة للحُزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله».

ومذهب فيلون في الصلاة أن الإنسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وخلائقه كلها، ومنها بنو آدم جميعًا رجالاً ونساءً ويونان وبرابرة، ومنها ذات المصلى جسدًا وروحًا ومنطقًا وعقلًا وحسا، فإن الصلاة على هذا المثال جديرة أن تسُتجاب.

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام: وليد الأرض، ووليد السماء، ووليد لله، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر، ووليد لله من تجَرد عن الدنيا، وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة، في زمرة الهداة والمرسلين.

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً، وإنما الخير كله من لله حيث كان، وهو كائن في كل مكان يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء.

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة:

« إن لله لا يفرح بالضحايا ولو حُسبت بالمئات، لأنه مالك كل شيء، ومُعطي الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا، وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب شيئاً غير الصدق وخلوص النية،أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال».

وقد كان فيلون عالميًّا يخُاطب بني الإنسان كافة، وكان يقول إن إسرائيل إنما سمي بهذا الاسم لأنه ينظر إلى لله، فكل ناظر إلى الله إسرائيل، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط

عن العصبية القومية، ولم ينسَ قط في كلامه عن بني إسرائيل أنهم هداة الأمم، وأنهم أحق عشائر الإنسان بإعجاب جميع العشائر، فإن الآثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين، كما يرفض اللقدمونيون شعائر الآثينيين، ولم يعهد في المصريين أنهم يأخذون بتقاليد السيثيين، أو في السيثيين أنهم يأخذون بتقاليد المصريين، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة، ولكن اليوم السابع الذي يستريح فيه اليهود مرعي الحرمة عند جميع الأقوام، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر الحرام في عرف الإغريق، إذ هو شهر يبطل فيه القتال،ولكنه يغري الناس بالإفراط في الشراب والطعام وشهوات الأجسام، وشتان هذا من موسم الصيام عند بني إسرائيل.

يقول هذا عن قومه، في كلامه عن حياة موسى – عليه السلام – ولكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر، وذنبهم عند الناس أنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة، ويتزمتون في المعيشة، والصرامة ثقيلة على الطباع، والتزمت بغيض إلى النفوس. ومع هذا يقول لنا موسى إن يتُمَ إسرائيل يستجلب لها شفقة لله مدبِّر الكون الذي وقعت إسرائيل من نصيبه، وفرزت من العالم كما تفرز بواكير الثماارهدية للخالق والأب الرحيم.

***

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه فيلون في زمنه، ولا يعُتبر فيلون من الأئمة ذوي الأتباع في الديانة الموسوية، ولكنه يعُتبر نموذجًا صالحًا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوائل عصر الميلاد.